

السيدة سكينة

بنت علي (ع)

ومقامها في داريا

الشيخ جعفر المهاجر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

أبدأً كان دور دمشق أحد اثنين، إما صانعة تاريخ وإما وطن تاريخ . تصنعه بوصفها صاحبة الدور المتميز دائماً . حيث تأخذ السياسة والدور معنى بعيداً ربما يمتد لقرون. ومن هنا وهناك سماها مؤرخون مدينة الاسرار. وهو من أنجح اللفقات. ذلك ان الدور الكبير، سواء كان فاعلا او موضوعا، هو دائما محاط بالاسرار.

وإن من اسرار دمشق انها المدينة التي حوت اكبر حشد من قبور آل البيت عليهم السلام ضمته مدينة إسلامية. وقد تبدو هذه الملاحظة لبعض من تلقى عليه أمراً هيناً غير ذي بال، لكن القبر يعني عموما التوطن. والتوطن حين يكون من آل البيت خصوصا يعني دائما أمراً كبيراً بأكثر من معنى. هذه اول دلالة لهذه الملاحظة تضرر وراها مجموعة من الدلالات، هي برسم الدارسين. بالاضافة الى أن آل البيت كانوا دئماً قوة استمرار بما

يمثلونه من نهج وشعارات وتاريخ. تعطي حتى قبورهم معنى كبيراً عند أوليائهم. ولذلك فإن زيارة تلك القبور تكون دائماً عندهم مناسبة إحياء وتجديد لما يمثله اصحابها من نهج وشعارات، يراها المتمعن بعمق في شعائر الزيارة.

لقد عملتُ هنا على سر من أعمق اسرار آل البيت في دمشق، بلغ من عمقه ان استحق ان يسمى لغزاً بالمعنى الكامل للكلمة. سواء فيما يتعلق بأصل وجود صاحبه أم بسيرتها أم بموضع قبرها. أعني بذلك كله سكينه بنت الامام علي عليه السلام. السيدة الجليلة الضائعة الذكر، التي لولا ورود اسمها في عدد من الاحاديث الشريفة ، ولولا أن حفظت لنا نقولات شعبية موضع قبرها لظل ذكرها ضائعاً الى الابد.

ارجو ان اكون قد وفقت في هذه الدراسة الأولية الى ما يبعث همة اهل العلم والتحقيق الى متابعة ما بدأتها هنا. وهناك المزيد حتما مما لم ألتفت اليه. وأن تكون مساهمةً في بعثٍ أوسع مشاركةً من المؤمنين إلى عمارة قبرها ، ليكون مقاماً منيفاً الى جانب مقامي زينب ورقية .

سلام الله على نبيه المصطفى وعلى آل بيته وصحبه
الطيبين الطاهرين .

و الحمد لله رب العالمين .

1- مشاهد ومقامات آل البيت عليهم السلام في الشام

تحفل المنطقة الشامية بمقامات ومشاهد تتصل بسبب او بأخر بآل البيت النبوي الكريم، عليهم ازكى التحية والتسليم.

ونعني بالمقام البناء القائم على قبر منسوب.

وبالمشهد البناء التذكري الذي أقيم تخليداً لذكرى عزيزة، مثل مشهد "الجوشن" المعروف في حلب، الذي بُني حيث نزل شمر بن ذي الجوشن بسبايا ورؤوس شهداء يوم كربلاء وهو متوجه بهم الى دمشق. ومثل مشهد أمير المؤمنين عليه السلام في قرية صفين، حيث يقال انه كان موضع فسطاطه، وغير ذلك كثير.

ولقد كانت تلك المشاهد والمقامات موضع عناية تقوى او تقتّر وفقاً للوضع السياسي العام، ووفقاً ايضاً للوضع السياسي والاجتماعي الخاص لأتباع أهل البيت سلام الله عليهم في المنطقة. ومن هنا رأينا بعضها قد اندثر بعد عمران، بعد ان انهار وضع الذين شادوه او عمروه زمناً. وفي كتب البلدان والرحلات، خصوصاً رحلة ابن جبير الشهيرة، ذكر عريض لمقامات ومشاهد في غير بلد

لسنا نعرف عنها اليوم شيئاً. كما نجد في المقابل أنّ منها ما أعيد إحيائه بعد ان كان دارساً او شبه دارس. وسنتحدث فيما يلي في الدلالة الحضارية والتاريخية لهذه الملاحظة الهامة.

ومن جهة اخرى، فقد كانت تلك المشاهد والمقامات موضع عناية المؤلفين، إما ضمن اهتماماتهم بأماكن الزيارات عموماً، مثل كتاب (الاشارات الى معرفة الزيارات) لابي الحسن الهروي المتوفى سنة ٦١٦هـ/١١١٨م، و(زيارات الشام) لعثمان بن احمد السويدي المتوفى سنة ١٠٠٠هـ/١٥٩١م، او حيناً آخر من ضمن اهتمامهم بمختلف المعالم الحضارية، مثل كتاب (الدارس في اخبار المدارس) للمؤرخ النعيمي المتوفى سنة ٩٢٧هـ/١٥٢٠م، وغير ذلك كثير. ولكن منهم ايضا من افرد مصنفاً خاصاً بمقامات اهل البيت، مثل محمد بن طولون الصالحي المتوفى سنة ٩٥٣هـ/١٥٤٦م، الذي وضع مصنفاً خاصاً بالسيدة زينب عليها السلام ومقامها المعروف في ضاحية دمشق. وآخر ما نعرفه في هذا الباب كتاب الاستاذ هاشم عثمان (مشاهد ومزارات ومقامات آل البيت عليهم السلام في سوريا).

فمن كل هذا نقول: إن الباحث يجدُ في هذه المقامات
والمشاهد، وما نعرفه أو يوصلنا اليه البحث عن تاريخها، مادة
خصبة وثرينة جدا للبحث، خصوصا وانها تطل على ميادين درج
التاريخ الرسمي على تجاهلها تماما.

٢- الدلالات التاريخية والحضارية

للمشاهد والمقامات في الشام خصوصا

إن عشرات المعالم التاريخية المتصلة بآل البيت عليهم السلام وبأخلافهم وأصحابهم، الباقية في المنطقة الشامية منذ آحاد متفاوتة، ذات قيمة تاريخية وحضارية خاصة. ودراستها والتعريف بها وبالاطار التاريخي الذي شيدت فيه ذات فائدة كبرى للباحث في تاريخ الشيعة خصوصا، بل وللباحث في تاريخ الشام عموما، لأن التاريخ وحدة لا تتجزأ، اذا ضاع منه جزء سرى النقص والجهالة الى باقي الاجزاء.

وأهمية تلك المعالم تأتي من أنها جميعها، من دون أدنى ريب، من أصفى المعالم التاريخية الباقية وأصدقها تعبيراً. أودع فيها جمهور عريض ضميره ووجدانه وولاءه، وأحيانا فنّه. فجاءت وثائق في الغاية من النفاسة لمن يحسن الإفادة منها. فالذين حفظوها وشادوها وحافظوا عليها على مر الأزمان ما فعلوا ذلك الا تثبيتها من عند انفسهم وتعبيراً عن مكنون ضمائرهم وعن محبتهم

وولائهم. عن تقديرهم البالغ لمن تنسب اليه. وما من مؤرخ انساني يطلب أكثر من ذلك. إنها بهذا الاعتبار أصدق قبلا وأنبأ قصدا من أهرامات مصر وقلعة بعلبك وكل ما شابهها، على ما فيها من عظمة وجلال، لأنها عند العارفين بتاريخها رموز للظلم والقهر والاستعباد، سُخِّرَ من أجل بنائها عشرات الالاف من البشر قهراً، وانفقت على بنائها أموال تفوق الحصر، انتزعت من لقمة عيش الناس ، إرضاء لغرور صاحب السلطان. ولو انها بنيت بجمام البشر لما أتت اكثر تعبيراً عن الشرّ.

أمّا هاتيك المعالم والمقامات فانها على بساطتها قد شادها وتوالى على حفظها على مر الازمان أناسٌ طيبون ، عمرت نفوسهم حوافز نبيلة، أرادوها تعبيراً عن إيمانهم وعن تمسكهم بحب وولاء يمثل أسمى ما ناضل من اجله البشر في كل تاريخهم من عدالة وحق وكلمة طيبة. وهذا منظور لم يدركه بعض الفقهاء القشريين، الذين ملأوا كتبهم بأقوال من مثل أن تعظيم هذه المقامات والمشاهد وزيارتها هو على حد الشرك بالله سبحانه. مع أنّ ممّا هو غنيٌّ عن البيان ، أنّ من تُنسب اليهم انما يُذكرون

وَيُعْظَمُونَ فَلأنهم عباد صالحون. عبدوا الله حق عبادته، وقاتلوا وأوذوا في سبيله، وفي سبيل ان تملأ الارض عدلاً كما مُلئت ظلماً وجوراً. فتعظيمهم هو في الحقيقة إعلاء لشأن العبادة الحقّة، وأيضاً لشأن العدالة بين البشر، بوصفها المطلب النهائي للرسالات والشرائع على الارض.

* (ولقد ارسلنا رسلنا بالتبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) (الحديد/١٥).

لذلك ، وفي رأس كل الاعتبارات ، ما ترمز وتومي اليه تلك المشاهد والمقامات ، فإن تاريخيتها عندنا تأتي في المرتبة الثانية من حيث الاعتبار والاهمية ، حيث المرتبة الاولى هي لنفس المحافظة عليها، ولذات إشادتها وحياطتها قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل.

وغنيّ عن البيان أن من الصعب، بل ربما من المستحيل، ان نثبت - مثلاً - ان رأس سيد الشهداء عليه السلام أودع بالفعل في المشهد المعروف شرق الجامع الاموي في دمشق، وأن المقام

المنسوب الى السيدة رقية هو مدفنها حقيقة، وكذلك المقام المنسوب الى السيدة زينب ... الخ. من المستحيل المطالبة بإثبات ذلك إثباتاً تاريخياً موثقاً، تحت طائلة الحكم بنفي النسبة اساساً. ذلك لأن سيرة اصحاب تلك المقامات والمشاهد، والملابس التي أحاطت بسيرتهم وحياتهم وخصوصياتهم ، كثيراً ما تكون غامضة جداً، إما لأنها خارج التاريخ الرسمي، خارج اهتماماته وخارج مناهجه، وإما بسبب المسح المتعمد على كل ما يتصل باخبارهم من قبل السلطة وأجهزتها والمتعاونين معها.

لكل ذلك فاننا نرى في تلك المقامات والمشاهد وثائق تاريخية من طراز رفيع، تجتمع فيها ولها مبدئياً شروط الصدق والبراءة وسلامة القصد، من منظور من شادها ورعاها، كلٌ بحسب موقعه. ومعلوم ان صدق القائل او الفاعل عند نفسه تأتي في المقدمة من صدقه إجمالاً، أي بالنظر الى صدقه بالقياس الى الواقع الذي يتكلم عنه او يعمل استناداً اليه (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله، والله يعلم انك لرسوله، والله يشهد ان المنافقين لكاذبون) (المنافقون / ١) . وهذا عنصر نقدي هامٌ

جداً، يُعفي الباحث من احتمال قصد الكذب او إخفاء الحقيقة.

٣- سكينه بنت علي (ع)

يكاد كتاب سيرة الامام علي بن ابي طالب عليه السلام يجمعون على انه لم ينب من السيدة الزهراء عليها السلام الا اربعة اولاد : الحسن والحسين وزينب الكبرى وزينب الصغرى المكناة ام كلثوم.

فالشيخ الاقدم، وأول من كتب في سيرة الائمة كتاباً وصل اليها، الحسين بن حمدان الخصيمي المتوفى سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م يقول في كتابه (الهداية الكبرى/٩٤):

"ولد له - يعني الامام عليا عليه السلام - من فاطمة: الحسن والحسين ومُحسّن، مات صغيراً، وزينب وأم كلثوم عليهم السلام".

والشيخ المفيد، محمد بن محمد بن النعمان المتوفى سنة
٤١٣هـ/١٠٢٢م، يقول في كتابه الشهير (الارشاد الى حجج الله
على العباد / ١٨٦) :

"وأولاد امير المؤمنين سبعة وعشرون ولداً، ذكراً وأُنثى،
الحسن والحسين وزينب الكبرى وزينب الصغرى، المسماة ام كلثوم،
من فاطمة ...".

فانت ترى ان الخلاف بين العلمين محصور في شأن
"مُحسّن". اذ يقول الشيخ الخصيبي انه " وُلِدَ ومات صغيراً ". في
حين يُعبّر الشيخ المفيد عن ارتيابه بأصل الخبر إذ يقول : "وفي
الشيعة من يذكر أنّ فاطمة، صلوات الله عليها، أسقطت بعد النبي
صلوات الله عليه وآله ذكراً ، كان سماه رسول الله وهو حَمَلٌ
مُحسّناً". وهذا الكلام له معنى أنه هو من غير القائلين بما قاله
بعض الشيعة .

وكلٌّ مَن عالج مسألة أولاد امير المؤمنين من فاطمة بعد
هذين الشيخين الاقدمين هو عالةٌ عليهما، ولم يخرج عن قولهما،

بمن فيهم ابو الفتح ، علي بن عيسى الاربلي ، المتوفى سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م، في كتابه (كشف الغمة في معرفة الائمة : ٢ / ٦٦) ، الذي يعتمد نص الشيخ المفيد ، مع بعض الاضافات غير الاساسية المُقتبسة عن غيره.

إذن فهم يُجمعون إجماعاً ضمناً على شأن آخر، هو محطُّ اهتمامنا في هذا البحث، خلاصته نفي ان يكون لأمير المؤمنين ابنة ثالثة من السيدة الزهراء اسمها سكيّنة. وقد استفدنا هذا الاجماع من سكوت الجميع عن ذكرها، وهم في مقام البيان لأولاد الامام. إذ السكوت في هذا المقام ومثله بيان، وفقاً لما تقوله قواعد فهم النصوص عند أهل الحديث والفقهاء وأصوله والتاريخ.

لكن يبدو لنا أنّ الامر، اعني وجود ابنة ثالثة للامام من السيدة الزهراء اسمها سكيّنة، كان معروفاً لدى من هم أقدم ممن نقلنا كلامهم أعلاه. بدليل الاحاديث الثلاثة التالية:

- الحسن بن محمد الطوسي في (الامالي)، عن ابيه عن الحفار عن اسماعيل بن علي أخي دعبيل عن الرضا عن آبائه عن

الحسين (ع) قال: "أدخل على أختي سكينة بنت علي خادم فغطت رأسها منه، فقيل لها إنه خادم ، فقالت : هو رجل مُنع من شهوته. (بحار الانوار: ٤٥/١٠٤ ، وسائل الشيعة: ١٤/١٦٧)

- فقال علي (ع): "والله لقد أخذت في أمرها - يعني فاطمة (ع) - وغسلتها في قميصها، ولم اكتشفه عنها. فوالله لقد كانت طاهرة مطهرة ميمونة. ثم حنطتها من فضلة حنوط رسول الله. وكفنتها وأدرجتها في أكفانها. فلما هممت بان أعقد الرداء ناديت: يا ام كلثوم، يا زينب، يا سكينة يا فضة يا حسن يا حسين هلموا تزودوا من أمكم" (بحار الانوار: ٤٣/١٧٩)

- وعن كتاب (دلائل الامامة) للطبري عن الحسين بن ابراهيم القمي عن علي بن محمد العسكري عن صعصعة بن ناجية عن زيد بن موسى عن ابيه عن عمه زيد بن علي عن ابيه عن سكينة وزينب بنتي علي عن علي (ع) قال: قال رسول الله (ص): "إن فاطمة خلقت حورية في صورة انسية، وإن بنات الانبياء لا تحيض". (مستدرك الوسائل: ١/٧٦)

٤- ما يستفيدة الباحث من الاحاديث الثلاثة

والمتمأمل الخبير في هاتيك الاحاديث سندا ومتنا يخرج
بنتائج عدة في غاية الاهمية والوضوح:

• الأولى:

انها جميعا، من دون استثناء، منقولة في كُتُبٍ معتمدة،
مصنفوها من أعرف الفقهاء وأهل الحديث. وناهيك بالشيخ الطوسي
الذي اخذنا الحديث الاول عن كتابه المعروف (الامالي). وبالحر
العالمي مصنف (وسائل الشيعة الى تحصيل مسائل الشريعة).
وبالشيخ المجلسي وكتابه الشهير (بحار الانوار). وأخيرا خاتمة
المحدثين المحدث النوري صاحب (مستدرك الوسائل).

• الثانية:

أن هاتيك الاحاديث هي حكاية وقائع حدثت في مناسبات
شتى، ابتغاء بيان ما فيها من احكام، تتعلق بموضوعات مختلفة

تمام الاختلاف. الامر الوحيد الجامع بينها هو ورود اسم "سكينة بنت علي" فيها. إمّا بهذه الصيغة الصريحة المباشرة، وإمّا بصيغة أخرى تؤدي المؤدى نفسه. كما سنعرف من الفقرة التالية. الامر الجدير بالملاحظة والاعتبار منا الآن أنّ الاسم يُذكر بشكل عفوي تلقائي، اعني من دون ان يكون هو المقصود بالذكر، بل في سياق أمور مختلفة أخرى، ما يعني ان وجود صاحبه كان أمراً معلوماً في غنى عن البيان، وفي غير حاجة الى التنصيص عليه لكي يُعلم. أي بالنتيجة ، أنّ تلك الاحاديث الثلاثة تقدم أدلة تتقاطع عند نقطة واحدة هي وجود ابنة لعلي من فاطمة اسمها سكينة. وهذا التقاطع من أقوى الأدلة.

• الثالثة:

ينص الحديث الاول، على لسان الامام الحسين (ع)، على "أختي سكينة بنت علي". وهذا واضح. أما الحديث الثاني فهو في وصف تجهيز السيدة الزهراء (ع). ومعلوم أنّ أمير المؤمنين لم يتزوج غير الزهراء طيلة حياتها معه. وها هو، فيما اقتبسناه من الحديث، ينادي اولاده، بعد ان كاد ينهي تجهيزها، ليتزودوا من

أمهم بنظرة أخيرة قبل عقد اكفانها عليها. وفي هذا السياق ينادي "سكينة" في عداد اولاد الزهراء الخمسة. أمّا زج اسم فضة، خادمة الزهراء، مع اولادها فهو بمعنى تنزيلها منزلة أحدهم ، تقديراً للعلاقة الطويلة والحميمة التي ربطت فضة بسيدتها.

• الرابعة:

يدل الحديثان الثاني والثالث ضمناً على جلالة السيدة سكينة وعلو مكانتها في بيتها ، وعند أعرف الناس بها، وعلى أنها كانت عندهم ممن تؤخذ عنها الاحكام ، وممن يصحُّ الاستشهاد بقولها. بدليل ان الإمام الحسين (ع) ، وهو الامام المعصوم ، يروي عنها الحكم بوجوب السّتر على المرأة المكلفة بحضور خادمها، حتى لو كان خصياً. ومن المعلوم أنّ المعصوم لا يحتاج في قوله إلى سند. فكان من قصد الامام في نقل الخبر عن أخته التتويه ضمناً بما لها من مقامٍ خاص . والحديث الثالث يحمل دلالة قريبة في معناها، وإن تكن السيدة سكينة تروي فيه عن أبيها أمير المؤمنين (ع) .

٥- مقام سكينه في دارياً

إن يكن التاريخ المكتوب، ما كان منه رسمياً وما كان منه خاصاً، قد سكت حتى عن مجرد ذكر سكينه ، فإن النقولات الشفوية الشعبية تفتح لنا كُوةً في هذه العتمة المطبقة ينفذ منها ضوء ضئيل . لكنه على ضآلته يكفي، بمعونة ما بين ايدينا من مصادر اخرى ، لبدء بناء تصوّرٍ ما عن بعض أجزاء السيرة الضائعة للسيدة سكينه .

وهذا دليل آخر على ان الجمهور أكثر أمانةً على الاجزاء التي تمسّ وجدانه من التاريخ ، وأسلم قصداً في حمله ، وأخصب حين يجذب غيره .

وطبعاً نحن لسنا ننسى هنا، بمناسبة هذا التنويه ، فضل الحديث الشريف الذي حفظ لنا ذكرها في تلك الاحاديث الثلاثة . فلولاها لما كان لدينا أدنى فرصة للاستفادة من تلك النقولات وتقديرها حق قدرها . ولكان تأثيرها الوحيد فينا ان أثارت عجبنا واستغرابنا .

فعلى بُعد الشِّقَّة وطول الزمان ما يزال أهل بلدة "داريا"، من ضواحي دمشق، يحفظون لقبير متواضع فيها أنه المثنوى الاخير للسيدة سكيئة بنت علي (ع). فاذا صحَّ ذلك، ولا سبب عندنا للشك في صحته، فان هذا يعني أننا أمام فرصة لا تُقدَّر بثمن لاحياء وتجديد ذكر هذه السيدة الجليلة. فكأن المقادير أو التدبير قد ذخرها لأهل هذا الزمان ، امتحانا لصدق ولأنهم ، ولإحياء أمر أهل بيت النبوة (ع) .

لكن الكشف بقدر ما هو دُخْرٌ، كما استحسنا ان نصِّفه، فإنّه يُلقى على العارفين والقادرين مسؤوليَّةً جسيمةً ذات أكثر من جانب . من ذلك ، فيما يخصنا بوصفنا باحثين في التاريخ وفي سيرة أهل البيت خصوصاً ، أن ندرس حقّه من الاعتبار، وفقاً للمناهج المعمول بها في هذا الباب. لنرى إلى أيِّ حدِّ يمكن الاخذ بتلك النقول كدليل على صحة ما تقوله .

وبحسب تجربتنا في ميدان الابحاث التاريخية فإننا على يقين من أنّ أمثال هذه النقول الشعبية اكثر براءةً بما لا يُقاس ، وأسلم قصداً من التاريخ الرسمي المكتوب .

إنّها عمل طوعيّ، لا يمكن ان ينطوي على قصد التضليل والايهام. توالت فيه جماعة كبيرة من الناس على تناقل معلومة من جيل الى جيل ، دون ان يكون من المتصوّر انها تواطأت على الكذب، لانها جماعة غير منظمة. وغنيّ عن البيان ، أنّ التواطؤ هو فرع ونتيجة لتنظيم المتواطئين انفسهم وراء هدف مُحدّد عندهم ، يرمون إليه ويعملون في سبيله. وهذا أمرٌ غير متصور بالنسبة لجماعة عفوية، كالجماعة التي حفظت هذا القبر ، وحافظت عليه خلال القرون الماضية . حفظته ماديا بحفظ القبر نفسه . وحفظته معنويا بحفظ ذكر صاحبه. في حين ضاع عند غيرهم ممن هم أجرد بما لا يقاس على ذلك. خصوصا مؤرخو وكتاب سيرة أهل البيت (ع) من كبار العلماء والمؤرخين.

هذه نقطة أجرد ما يكون بالاعتبار عند من يُحصّ قيمة هذه النقولات. فلنتمعن جيدا في أنّ تلك الجماعات ليست قادرة بحسب تأهيلها الثقافي والفكري على معرفة أصل وجود ابنة للامام اسمها سكيّنة من أيّ مصدر آخر، سوى ما تناقلته عن أسلافها. إنّهُ المصدر الوحيد المُتاح لها. فكيف يمكن ان تتواطأ، بأي شكلٍ

من الأشكال، على افتعال المعلومة، وهي التي لا تملك ادنى فرصة لمعرفة أساسها ، ما دام قد خفي على غيرها، ممّن هو أجدر منها وأقدر بكثير.

لكل تلك الاعتبارات ، فإننا نرى ، بنتيجة هذا التحليل ، أنّ تلك النقولات هي في أعلى درجات القوة والوثاقة ، إلى درجة تضعها في حد التواتر، وهو أعلى درجات النّقل .

٦- كيف ولماذا ضاع ذكر السيدة سكينة؟

من البيّن ، لكل قارئٍ حصيدٍ تابعٍ تطور البحث حتى الآن ، أنّ النتيجة الواضحة والموثّقة التي وصلنا إليها تطرح سؤالاً كبيراً لا يقلُّ حجماً وأهميةً عن النتيجة نفسها.

السؤال هو:

إنّ يكُن أمرُ السيدة سكينة بتلك المكانة، بحيث يُذكر بما عرفناه من عفوية وإجلال في حياة ابنيها وأخويها، سلام الله عليهم، كما كانت على ما عرفناه ايضاً من جلاله قدر وارتفاع مكانة عندهم ،- فلماذا خفي أمرها من بعدهم. خصوصاً وأنّ دواعي الذكر متوقّرة فيما شَجَرَ بعدهم من أحداثٍ جسام؟

السؤال هنا هو برسم تاريخنا الرسمي- السلطوي الذي ألمحنا آنفاً إلى رأينا فيه، وخصوصاً كيف قصر عنايته على ذوي السلطان وأشياهم وأتباعهم. وفي المقابل سكت، على الأقلّ، عمّن سواهم وعن كل ما يتصل بهم. ومن الغنيز عن البيان أنّ السيّد

سكينة وبيتها هم جميعا من الباب الثاني. ومن هنا فانه لا عجب في ان لا نجد لها ذكرا في كل المكتبة التاريخية الكبيرة.

ثم إنه يتصل، ثانيا، باضطراب أمر أتباع أهل البيت (ع) في القرون الثلاثة الاولى، بحيث أنهم لم يبدأوا نظم أمرهم فكريا وثقافيا، وخصوصا تسجيل تاريخهم الخاص، الا في عصر المؤسسين الكبار أمثال الشيخ الصدوق، المتوفى سنة ٣٨٥هـ/٩٩٥م، والشيخ المفيد، المتوفى سنة ٤١٣هـ/١٠٢٢م، والسيد المرتضى، المتوفى سنة ٤٣٣هـ/١٠٤١م. ومن ذلك رأينا أن أول من صنّف في سير الائمة (ع) هو الحسين بن حمدان الخصيبي، المتوفى سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م، في كتابه (الهداية الكبرى)، ثم من بعده الشيخ المفيد في كتابه (الارشاد الى حجج الله على العباد). فهذان هما رائدا التصنيف في التاريخ الخاص بالائمة، ومن بعدهما توقف الاهتمام بالموضوع تجديداً وتطويراً مدة تقرب من قرنين وبعض القرن. اي الى ان ثلث عليهما ابو الفتح الاربلي، المتوفى سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م، بكتابه (كشف الغمة في معرفة الائمة). وهو

كتاب لا تصح مقارنته بعملية سلفيه من حيث انه يفتقر الى الاصاله التي تمتعنا بها. والجدير بالذكر انه منذ ذلك الاوان لم تحصل إضافة اساسية على اعمال أولئك الرواد.

فمن هذا التحليل نعرف كيف ولماذا ضاع ذكر هذه السيدة الجليلة، بين التاريخ الرسمي الذي من مزاجه أن يتجاهل مثلها، وبين التاريخ الخاص الذي يبدو أنه لم يلتفت اليها بسبب القطع الزمني الطويل بين زمانها وزمان تسجيله.

لكنّ التحليل يطرح بدوره سؤالاً ثانياً: إذن لماذا لم يضع ذكرُ اختيها زينب الكبرى وزينب الصغرى، المكناة ام كلثوم، والاسباب هي هي بالنسبة للاخوات الثلاث؟

وفي الجواب نقول:

أما اشتهار ذكر السيدة زينب الكبرى ، فإن الفضل فيه يعود إلى اختراقها الشجاع للنظام الاعلامي الذي بناه الحكم الأموي. وتحديدًا بفضل مواقفها البطولية في التنديد العلني بقتلة أخيها سيد الشهداء (ع) وأهل بيته واصحابه، رضوان الله عليهم

اجمعين، من الكوفة الى الشام فالمدينة. وبذلك أسقطت جدار الرعب والتضليل الذي بناه الحكم الاموي حول جريمته الشنيعة، وبدأت تفاعلا متسلسلا أخذ أشكالا شتى، قضى على البيت الاموي في النهاية وهو في أوج قوته. سيخرج بنا بسط الكلام فيه عن غرض هذا البحث.

اما شهرة اختها الصغرى ، فانها تعود إلى سببٍ مختلفٍ تماما، وهي التي لا يعرف عنها أنها قامت بأي عمل علني. وعلى كل حال فاننا لا نعرف عن سيرتها ما يذكر. لكن القاعدة تقضي بأن شهرة أي إنسان بعد الممات ، هي فرعٌ واستمرارٌ لشهرته حال الحياة. وسنعود الى معالجة هذا السؤال في المكان المناسب فيما يلي .

أمّا السيدة سكيّنة ، فالظاهر أنّ أمراً لا نعرفه قد حالَ بينها وبين أنّ يكون لها إحدى الحسينيين. حالَ بين ان يكون لها دور بارز فيما شجر بعد شهادة أبيها وأخيها. وحالَ بينها وبين ان يكون لها مقامٌ معروفٌ يزوره أولياؤها وأولياء بيتها.

فهذه نظرية حاولنا فيها أن نضع تصوّراً لسبب ضياع ذكرها دون أختيها. وهي كما قلنا مجرد نظرية ، فيها ما هو ثابت ، وفيها ما هو مُستفادٌ من ذلك الثابت. ومهما يكن فانها لا تُغيّر شيئاً من موضوعها.

يبقى سؤالٌ أخير، ربما يساعد الجوابُ عنه على كشفِ جانبٍ من لغز السيدة سكيّنة . خصوصاً السؤال الذي نعالجه في هذا الفصل.

والتساؤل يدور على ان قبرها في ضاحية من ضواحي دمشق . والذي يجعل السؤال حرجاً هو الانطباع الذي يحمله الناس عن المدينة في زمان السيدة ، بوصفها المدينة المناجزة لآل البيت (ع) ، ناصبتهم العداة وكانت مصدرَ أعنف ألوان التنكيل التي أنزلت بهم مادياً ومعنوياً. الامر الذي يجعل من غير السهل القبول بأنها ، أي سكيّنة ، قد قضت فيها أيامها الأخيرة ، ومن ثمّ ماتت ودُفنت فيها.

ولقد قدّمنا بالكلام على منهجنا في التعاطي مع هذه المسألة عموماً ، ونُضيف الآن ملاحظةً ذات شأنٍ بالغٍ بالنسبة إلى مقامات آل البيت في دمشق ، خصوصاً أنّها جمعت أكبرَ حشدٍ منها اجتمع في مدينة ، بحيث يصحُّ اعتبار دمشق المدينةَ الأولى في دار الاسلام ، من حيث ما احتوت عليه من عدد المقامات المنسوبة اليهم. ولقد أُحصيتُ فيها ثلاثين مقاماً عدّاً ، منها ما هو معمور ، ومنها ما هو دارس. اكثرها من الجيلين الأول والثاني، وصولاً الى الجيل السادس. وذلك استناداً إلى مصادر كثيرة اهمها: (الرحلة) لابن جبير، و(معجم البلدان) لياقوت، و(منتخبات التاريخ لدمشق) للحصني، و(الذّارس في تاريخ المدارس) للنعيمي، و(أخبار الزيّنات) للعبيدلي، و(ثمار المقاصد) لابن عبدالهادي، و(تاريخ دمشق) لابن عساكر، و(خطط الشام) لمحمد كرد علي، وغيرها.

ومن المهم أن نُشير هنا ، إلى أنّ ثلاثاً من بنات الإمام أمير المؤمنين (ع) مدفونات في دمشق وضواحيها، هنّ زينب وسكينة وأمّ الحسن ، زوجة سلمان بن علي بن عبدالله بن عباس ،

المذكورة في (الارشاد/ ١٨) للشيخ المفيد، وفي (معجم البلدان: ٢/ ٤٥٨) لياقوت. فضلا عن فضة خادمة الزهراء (ع) . فكأننا هنا أمام ظاهرةٍ مُصَغَّرةٍ ، ضمن تلك الظاهرة الأكبر، تتصل ببيت الامام خاصة.

وغنيَّ عن البيان ، أنّ هذه الحقيقة تغلب السؤال رأساً على عقب . فلا يعود حول مجرد خبر موضوعه واقعةً مفردة ، على الباحث أن يُعزَّرَ ما اذا كانت صادقةً ام كاذبةً ، لتضعنا أمام ظاهرةٍ كبيرةٍ ، حجمها يجعلها أكبر من أن يشكَّ السامعُ بصدقها عموماً. حيث تصبح وظيفة الباحث ان يقدم لها تفسيراً. وعليه:

كيف نفسر وجود هذا الحشد الكبير من مقامات أهل البيت (ع) في دمشق وضواحيها؟

يلوح لي أنّ السرَّ مخبئاً في حقيقتين تاريخيتين:
الأولى : اضطراب الوضع في العراق والحجاز بسبب الثورات المتتالية ، وردُّ فعل السلطة العنيف عليها. وأشدُّدُ هنا على حركة عبدالله بن الزبير، التي كادت أن تصل إلى مراميها النهائية،

بحيث انه لم يبقَ في يد الأمويين إلا جزءٌ من الشام. ومن المعروف أنّ عبدالله وإخاه مصعبا كانا لا يخفيان ضيقهما البالغ بالهاشميين عموماً وبآل البيت خصوصاً. وإنني أظنُّ أنّ خروج من خرج منهم من مواطنهم في الحجاز، واتجاه قسم منهم الى دمشق قد حدث بسبب، وفي ظلِّ الحكم الزبيري للحجاز والعراق .

الثاني : حقٌّ أنّ الشام ، منذ أوّل دخوله في دار الاسلام ، قد بُني سياسياً ووُجدانياً ليكون أرضاً مسمومةً لكل ما له علاقة بأهل البيت. لكنّ التغييرات السُّكانية الضخمة التي حدثت غير بعيد ، قد أحدثت فيه انقلاباً هائلاً. وأخصُّ بالذكر هنا الهجرة الهمدانية الكبرى من العراق . فضلاً عن هجرات قبائل وجماعاتٍ أُخرى كثيرة . وإلى هذه الهجرات يعود الفضل في امتلاء الشام سكانياً ، بعد ان كان يعاني من تخلُّلٍ سُّكانيٍّ كبير، بسبب النزوح الكثيف للعرب المتصرين مع الروم المنهزمين باتجاه آسيا الصغرى . وقد درسنا بالتفصيل هذه الهجرات وآثارها السُّكانيّة والثقافيّة في مختلف فصول كتابنا (التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسوريا).

وكانت غوطة دمشق من منازل الهمدانيين واليمانيين
عموماً. وما تزال بعض قراها تحمل اسماء يمانية ، مثل قرية
"حجيرة"، التي تعرف اليوم بـ "حجيرة" ، وعين ثرما ، وصنعاء
الدارسة . وما على من يرغب في تفصيل هذا الاجمال إلا الرجوع
الى كتابنا هذا.

اعتقد اننا، بعد هذه المعلومة، قد غدونا مهئين لمتابعة
المشكلات التي يطرحها السؤال الذي وضعناه عنوانا لهذا الفصل.

فنحن نعرف ان قرية "حجيرة" وجارتها "راوية"، التي دفنت
فيها السيدة زينب، كانتا منازل لهمدان ، القبيلة التي عُرفت
باخلاصها الذي لا تشوبه شائبة للامام امير المؤمنين (ع) ، ثم
لآل البيت من بعده . وإليها يعود الفضل في نشر التشيع في
مختلف انحاء الشام ، بعد ان نزلتها قادمة من العراق بعيد السنة
٤١هـ/٦٦١م ، وتفصيل هذا الاجمال في كتابنا نفسه.

اما دارياً فكانت منزلاً لعدة قبائل يمانية، مع غلبة لخولان
(راجع: تاريخ داريا للقاضي الخولاني) . وخولان جارة لهمدان في

موطنها الاصيلي شرق اليمن. ونحن نظنُّ أنّ الفارق السكاني بين القريتين هو الذي شكّل الفارق . أعني بالنسبة للسؤال الثاني ، الذي طرحناه قبل قليل، بحيث ظل قبر السيدة زينب معروفا مزورا، في حين تتوسي قبر اختها. لا شك ان التشيع كان فاشياً في خولان في بدء امرها في داريا، ولكنها لم تكن على مثل ثبات همدان. ولعل إهمال قبر السيدة سكينه، بالقياس الى قبر أختها زينب، يصلح مقياسا ودالاً على ما جرى لخولان. أضف إلى ذلك أنّ هذه القرية التي كانت وما تزال من اعظم قرى الغوطة ، قد تعرّضت لعدة نكبات، ذهبت احداها بأهلها وبمعالمها. اعني فتنة ابي الهيدام الشهيرة ، التي نقرأ اخبارها في (تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر: ١٨٠/٧) . فلعل تحوّل خولان قد جرى إثر فقدانها ثقلها السكاني والقتالي بسبب تلك الفتنة. ومثل ذلك أمر معروف. وكان من تداعيات ذلك أنّ أهمل قبر السيدة سكينه، ولم يبق إلا تلك النقولات الشفوية ، التي كان لها فضل كبير على كل حال، مما اشرنا اليه آنفا.

٧- خلاصة ونتائج

إن تَكُن غاية أيِّ بحثٍ أن يَصِلَ ، في نهاية المطاف ، إلى اجوبة واضحة وموثقة على الاسئلة التي يطرحها، فإننا نرى أنّ هذه الدراسة، على إيجازها، قد نجحت في معالجة المشكلتين المطروحتين في عنوانها. نجحت في أن تُثبت ، بما لا يقبل الشك، ان للإمام علي بن ابي طالب (ع) ابنة ثالثة من السيدة الزهراء اسمها سكينه. ونجحت في ان تقدم دليلاً قوياً على أنّ قبرها هو في قرية "داريا" في غرب الغوطة. كل ذلك برغم الفاصل الزمني الطويل الذي يفصل الدراسة وموضوعها. وبرغم سكوت المصادر عن ذكرها، وبعضها قد يُفهم من سكوته معنى النفي، لانه في مقام الاستقراء التام لموضوعه.

وفي رأينا ان هناك نتيجة ضمنية اكبر من تينك اللتين وصلنا اليهما. هي ان مجال البحث في التاريخ الخاص لآل البيت ولشيعتهم ما يزال بكرا. والا فكيف نفسر ان تُذكر السيدة سكينه في أحاديث شريفة ، مصادرها أمام الجميع ومحل عناية ، ومع ذلك

يضيع ذكرها عند من ينبغي ان يكونوا أعرف الناس بها، وكأنها لم تكن. فلتكن هذه النتيجة النموذج نداءً لكل العارفين الغياري من أوليائهم، يبعث الهمم الى الدراسة والبحث. إن هو أثمر فهو من بركات سكيئة ، ونعمة على اوليائها كأنها مذخورة لهذا الزمان.

المحتويات

- المقدمة..... ٢
- ١- مشاهد ومقامات آل البيت عليهم السلام في الشام . ٥
- ٢- الدلالات التاريخية والحضارية ٨
- ٣- سكينه بنت علي (ع) ١٢
- ٤- ما يستقيده الباحث من الاحاديث الثلاثة..... ١٦
- ٥- مقام سكينه في داريا ١٩
- ٦- كيف ولماذا ضاع ذكر السيدة سكينه؟ ٢٣
- ٧- خلاصة ونتائج..... ٣٣